**جمهورية العراق / بغداد / الجامعة المستنصريَّة / كليَّة الآداب**

**قسم اللغة العربيِّة / الأدب الأندلسي / أُستاذ المادة أ.م.د قصي عدنان الحسيني**

**المرحلة الثَّالثة/ مسائي/.....1436ـ1437هـ /2015ــ 2016م**

**الحياة الخاصة للأندلسي / القسم الأوَّل**

**الإطار العام للمنزل الأندلسي :**

كان الأندلسيون ولا سيما الطبقات العليا منهم من أصحاب مجتمع الوفرة والثراء مولعين بتشييد المباني والقصور الباذخة ، باذلين الكثير في تخطيطها ، وزخرفتها ، وتأثيثها ، وإحاطتها بكل ما يبهج النفس ، ويسر الخاطر ، كل هذا في نطاق كل ما يرضي تقاليدهم الإسلامية ، ويساير حسّهم الديني ، ويلائم ذوقهم المترف ، حتى كانت المنازل في كثير من الحالات مقاما بهيجا تحلو السكنى ، ويطيب فيه العيش .

وبعيدا عن قصور الأمراء ، والأثرياء ، فقد كانت لعامة الناس ، وفقرائهم بيوت أخرى تعرّض لها الشعر الأندلسي علة قلة ؛ ذلك لأن الشعر بطبيعته نتاج ارستقراطي ، ومن هنا كان الانسجام بينه وبين الأشياء الفخمة الباذخة .

وقد كان بعض الأندلسيين يتخذون من الخانات ، أو الفنادق أماكن للسكنى ، والإقامة ، ويبدو أنها كانت ضيقة غير مريحة .

وقد كانت تستعمل في التخزين ، والبيع إلى إيواء الناس ، وتمثل هذه المنازل الوجه الآخر من الحياة لهؤلاء الذين يعيشون في حدود السعي وراء حاجاتهم الأساسية في الحياة من دون أن يتجاوزوها إلى التمتع بمباهج الحضارة ، وإلى الخلود عن طريق آثار العمران .

**الزواج ، وعاداته .**

في ساحات القصور والمنازل كانت تبدأ رحلة الحياة ، فتجري مراسيم الحدث السعيد المهم ، وهو الزواج ؛ لبناء أول خلية في بنية المجتمع ، وغني عن البيان أن الترغيب فيه ‘ والحرص عليه تحقيقا لغايات سامية ، دينية ، وخلقية ، وصحية ، واجتماعية كان القاعدة الثابتة لسلامة هذا المجتمع ، وكل مجتمع إنساني جدير بالاحترام والبقاء .

والإمام ابن حزم يروي مايشير إلى مزاج المجتمع الأندلسي في هذا الصدد : (( وإنك لترى المرأة الصالحة المسنّة المنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحبّ أعمالها إليها ، وأرجاها للقبول سعيها في تزويج يتيمة )) .

**الطفل الأندلسي .**

مهما يكن من أمر عناية الأندلسيين بالأعراس ، واتخاذ الزوجات ، فقد كانت المهمة الجوهرية للمرأة التي تنجب الأطفال ، وغني عن البيان أن المرأة الولود كانت وما زالت ينظر إليها نظرة احترام وتقديس في المجتمع الأندلسي كما هو الحال في كل المجتمعات الإسلامية ، فضلا عن تقديم التهنئة للآباء السعداء بأبنائهم ، مع إضفاء الصفات المحببة لدى حديثي الولادة صفات السيادة والوسامة والشجاعة .

**في مجال التربية**

يبدو أن الأب الأندلسي يبدو عطوفا شفيقا على أبنائه لايطيق البعد عنهم ، يرسل أفانين الشكوى من فراقهم ، بل بلغ الحال ببعضكم أن يحكموا على أنفسهم بالحرمان من الأبوة ، واتخاذ النسل من باب الإشفاق والخوف من أن يمسّهم مكروه لا تحتمله عاطفته الرقيقة .

ومن مظاهر عناية الأندلسيين بأبنائهم ما لُوحظ من عنايتهم الفائقة بتربيتهم عن طريق إفساح أوسع المجالات لاكتشاف المعارف والآداب ، يعبر عن مشاعرهم في احترام العلم ، وارتباطه بالسمو الإنساني الشاعر أبو عبد الله ألحميدي :

**من لم يُكن للعلم عند فنائه أرجٌ فإنّ بقاءه كفنائــــــه**

**بالعلم يحيا المرءُ طول حياته فإذا انقضى أحياهُ حُسنُ ثنائه**

وقد أعان على التعليم عامل الغيرة على بثِّ العلم عند أٌمرائهم وسلاطينهم بعامة ، حتى أنّ أبناء الأيتام والضعفاء لم يكن يقعد بهم الفقر عن مواصلة التعليم لأقصى مدى ، ويكفي أن نتذكر في هذا السبيل همة الحكم المستنصر الذي أنشأ في سنة 356 هــ سبعا وعشرين مدرسة في قرطبة ، وأر باضها ، فوق ما كان قائما أصلا ، ويذكر أيضا أنّه وفّر لها المعلمين ، وأجزى عليهم المرتبات المجزية ؛ ليقوموا بمهمة تعليم أبناء الضعفاء والمساكين حوالي الجامع ، وفي كل ربض من أرباض قرطبة .

ويحدّثنا ــ بصدد شيوع التعليم ، وتمتع الجميع به ــ المؤرخ (جوزيف ماكيب ) فيروي أنه كان في قرطبة وحدها 800 مدرسة ، وأنه لم تكن هناك قرية ــ وإن كانت صغيرة جداً ــ داخل المملكة قد حرمت من بركان التعليم ، وأن التعليم كان عاماً به حتى أولاد أفقر الفقراء .

وأن الأطفال كانوا يقبلون على التعليم في سن ٍّ مبكرة ، وأنهم كانوا يتخذون من الألواح أداة للتعليم كانت غامرة .

وقد اقترنت الرغبة الشديدة في نشر العلم وتشجيع الطلاب عند بعض الخيِّرين من الأندلسيين حدّاً يدعو للإعجاب والدهشة ، فأقاموا معاهد العلم في منازلهم الخاصة ــ دعما للمدارس الرسمية العامة ــ يحكى عن الفقيه الطليطلي أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري ( سنة 403هــ ) أنه خلق جوّاً مثالياً للدارسين في منزله الخاص كما يُطلعنا عليه أحد تلاميذه :

( كنت آتي إليه في قلعة رياح من المشرق ، وكنّا نيفاً على أربعين تلميذاً ، فكنّا ندخل في داره في شهر نوفمبر و... في مجلس قد فُرش ببسط من الصوف مبطنات ، والحيطان بالليود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان مملوءا فحما ، يأخذ دفئه كل من في المجلس ، فإذا فرغ من الحديث أمسكهم جميعا ، وقد قُدِّمت الموائد عليها الثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن ... )

وواضح أن مؤسسة هذا الفقيه العظيم تعددت أغراض التعليم فيها ؛ لتصبح مؤسسة اجتماعية متكاملة ، على أن الإمام ابن حزم يوقفنا على أسلوب آخر في التعليم كان متبعاً في قصور كبار القوم يقضي بقيام الجواري بمهمة التعليم لأبناء القصر في المرحلة الأولى يقول ابن حزم : " وهنّ علمنني القرآن ، وروّينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني في الخط ... " .

وقد قامت النّساخات في مكتبة الحكم بنشاط تعليمي مماثل لنشاط جواري آل حزم .

**منهج التعليم وبعض أحوال المتعلمين**

لقد حدد ابن عبدون القدر الضروري من التعليم في أن يٌعلم التلميذ حسن الألفاظ في القرآن ، وجودة الخط والهجاء ، وأما لمن يبيع ويشتري فمعرفة الحساب أكثر العلوم نفعاً .

ويزيدنا ابن خلدون علماً بمنهج التعليم الابتدائي عند الأندلسيين ، " فهم يحملون الولدان على تعلم القرآن دون اقتصار عليه ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان ، رواية الشعر في الغالب ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وحفظها ، وتجويد الكتاب ، ... إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شذا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب ، وتعلق أذيال العلم على الجلّة " .

ويبدو أن هذا كله كان بالنسبة للتعليم في المراحل الأولى ، أما المدارس العليا ، فقد كانوا يُعلِّمون إلى جانب العلوم الدينية والأدبية ، وعلوم الطب والفلك ، والفلسفة .

ولم تكن المكتبات في الأندلس أقل شأنا من المدارس في نشر الثقافة ، وإحاطة الناس بجو علمي وفكري مزدهر ، وقد عمل على نموها وانتشارها صناعة الورق التي كانت مزدهرة في الأندلس .

والتربية المؤدية إلى الشغف بالإطلاع والتعلق بأذيال العلم والأدب ، جعلت بعض الآباء يحنقون على أبنائهم الذين قعدت بهم الرغبة الجامحة في العلم عن اكتساب الصفات التي لابد منها للمحافظة، على كيان البلاد في مجتمع يقوم في كثير من حالاته على الحرب والنضال .

وتبقى حقيقة كبرى بعد ذلك تُحسب للمسلمين في الأندلس فيما يتعلق بمستوى الثقافة تلك أن دوزي استطاع أن يقرر أن كل شخص تقريباً كان يعرف القراءة والكتابة في الأندلس في عصر كانت أوروبا لا تمتلك فيه غير مبادئ في المعرفة .